أكاديمية الإمام الذهبي

للعلوم الشرعية

شرح

مائة المعاني والبيان

لزين الدين أبي الوليد محمد بن محمد الحلبي الحنفي المعروف بـ ابن الشحنة

(ت:٨١٥هـ)

المحاضرة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لله البديع الهادي، إلى بيان مهيع الرشاد، أمدَّ أرباب النهى ورسما، شمس البيان في صدور العُلَما، فأبصروا معجزة القرآن، واضحة بساطع البرهان.

ثم صلاة الله ما ترنَّما، حادٍ يسوق العيس في أرض الحمى، على نبينا الحبيب الهادي، أجلِّ كلِّ ناطقٍ بالضاد، محمدٍ سيدِ خلقِ اللهِ، العربيّ الطاهرِ الأوّاهِ، ثم على صاحبه الصدّيقِ، حبيبِه وعمرَ الفاروقِ، ثم أبي عمرو إمام العابدينْ، وسطوةِ الله إمامِ الزاهدينْ، ثم على بقية الصحابةْ، ذوي التقى والفضل والإنابةْ، والمجدِ والفُرصةِ والبراعةْ، والحزمِ والنجدةِ والشجاعةْ، ما عكف القلب على القرآنِ، مرتقياً لحضرة العرفانِ.

أما بعد: فهذه هي المحاضرة الثالثة من محاضرات شرح منظومة مائة البيان والمعاني، لابن الشحنة الحنفي رحمه الله، التابعة للفصل الدراسي الثاني، من السنة الدراسية الثالثة، في أكاديمية الإمام الذهبي رحمه الله.

فأقول وبالله التوفيق ومنه العون والتسديد:

قال الناظم رحمه الله:

فَصَـــاحَـةُ المفْرَدِ فِي سَـــلاَمَتِـهْ ... مِـنْ نَـفْـرَة فِـيـهِ وَمِـنْ غَـرَابَـتِـهْ
وَكَـونُـهُ مُخَـالِـفَ الْـقِـيَـاسِ ... ثُمَّ الفَصِـيحُ مِنْ كَلاَمِ النَّـاسِ
مَـا كَـانَ مِنْ تَنَـافُر سَـلِيمَـا ... وَلَمْ يَكُنْ تَألِيفُـهُ سَـقِيمَـا
وَهْوَ مِنَ التَعْقِيدِ أَيْضًـا خَـالِي ... وَإِنْ يَكُنْ مُطَـابِقـاً لِلْحَـالِ
فَـهْـوَ الْـبَـلِـيـغُ وَالَّـذِي يُـؤَلِّـفُـهْ ... وَبِالْفَصِـيح مَنْ يُعَبِّرْ نَصِـفُـهْ
وَالصِّـدْقُ أَنْ يُطَـابِقَ الْوَاقِعَ مَـا ... يَقُولُـهُ وَالْكِـذْبُ أَنْ ذَا يُعْـدَمَـا

الشرح:

تكلم الناظم رحمه الله في هذه الأبيات في عدة مسائل:

فصاحة المفرد – فصاحة الكلام – فصاحة المتكلم – بلاغة الكلام – بلاغة المتكلم – الصدق والكذب.

تعريف الفصاحة:

لغة: الظهور والإبانة، ومنه قوله تعالى {وأخي هارونُ هو أفصحُ مني لسانا}

اصطلاحا: يختلف تعريف الفصاحة في الاصطلاح بحسب اختلاف الموصوف، وذلك أن الفصاحة يوصف بها اللفظ المفرد، والكلام، والمتكلم.

المسألة الأولى: فصاحة المفرد:

قال الناظم رحمه الله:

فَصَـــاحَـةُ المفْرَدِ فِي سَـــلاَمَتِـهْ ... مِـنْ نَـفْـرَة فِـيـهِ وَمِـنْ غَـرَابَـتِـهْ
وَكَـونُـهُ مُخَـالِـفَ الْـقِـيَـاسِ ... .

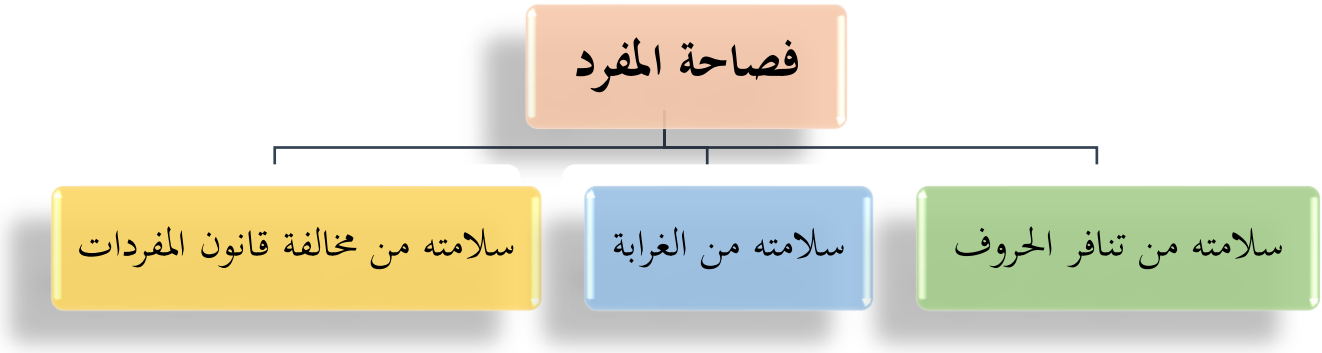

الشرح:

أولا: سلامة المفرد من تنافر الحروف: والتنافر في الكلمة وصف يجعلها ثقيلة على اللسان، يصعب النطق بها، بسبب تقارب مخارج الحروف.

والتنافر قسمان:

- تنافر شديد: نحو قولهم: رجلٌ صَهْصَلِقُ الصوتِ، أي: ذو صوت شديد.

وسئل أعرابي عن ناقته، فقال: تركتها ترعى الهُعْخُع.

- تنافر خفيف: نحو قول امرئ القيس: غدائره مستشزرات إلى العلا ***** تضل العقاص في مثنى ومرسل.

وعلاج هذا العيب يكون **بتعلم علم الأدب**، وبالقراءة لكتب الأدب، وسماع كلام الأدباء والفصحاء.

ثانيا: سلامة المفرد من الغرابة: وغرابة الكلمة كونها غير ظاهرة المعنى، ولا مألوفة الاستعمال عند فصحاء العرب.

وأسباب الغرابة نوعان:

- بسبب قلة استعمال الكلمة عند العرب: كقول أبي سليمان عيسى بن عمر النحوي لما سقط عن حماره فاجتمع عليه الناس، فقال: مالكم تكأكأتم عليّ كتكأكئكم على ذي جنة، افرنقوا عني.
- بسبب أن التوصل للمعنى المراد يحتاج لتكلف شديد: نحو قول أبي الشعثاء عبد الله بن رؤبة العجاج يصف أنف حبيبته: ومقلة وحاجبا مزججا ***** وفاحما ومِرْسَنًا مُسَرَّجًا.

فيصف أنف حبيبته بأنه مُسَرَّج، فاختلفوا في معنى مُسَرَّج، فابن دريد يقول: يريد تشبيه أنف حبيبته بأنه دقيق ومستو كالسيف السُّرَيْجِي، المنسوبة إلى حداد يسمى سُرَيْجًا.

وابن سيده يقول: يصف أنف حبيبته بأنه برّاق ولامع كالسِّراج.

وعلاج هذا العيب يكون **بتعلم علم اللغة** – المعاجم – فيقف الطالب على مشهور الألفاظ من غريبها، ومستعملها من غير المستعمل.

ثالثا: سلامة المفرد من مخالفة قانون المفردات: والمراد بقانون المفرادت، أي: علم الصرف، وذلك نحو قول أبي النجم بن قدامة: الحمدُ للهِ العليِّ الأجلَلِ ***** أنتَ مليكُ الناسِ رَبًّا فاقْبَلِ.

والقياس الصرفي أن يقال: الأجلِّ.

وكقول الشاعر: فلا يُبْرَمُ الأمرُ الذي هو حالِلٌ ***** ولا يُحْلَلُ الأمرُ الذي هو مُبْرِمُ.

والقياس الصرفي أن يقال: حالٌّ – يُحَلُّ، وعلاج هذا العيب **بتعلم علم الصرف**.

المسألة الثانية: فصاحة الكلام:

قال الناظم رحمه الله:

..... ثُمَّ الفَصِيحُ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ
مَا كَانَ مِنْ تَنَافُرٍ سَلِيمَا وَلَمْ يَكُنْ تَأْلِيفُهُ سَقِيمَا
وَهْوَ مِنَ التَعْقِيدِ أَيْضاً خَالِي .....

الشرح:

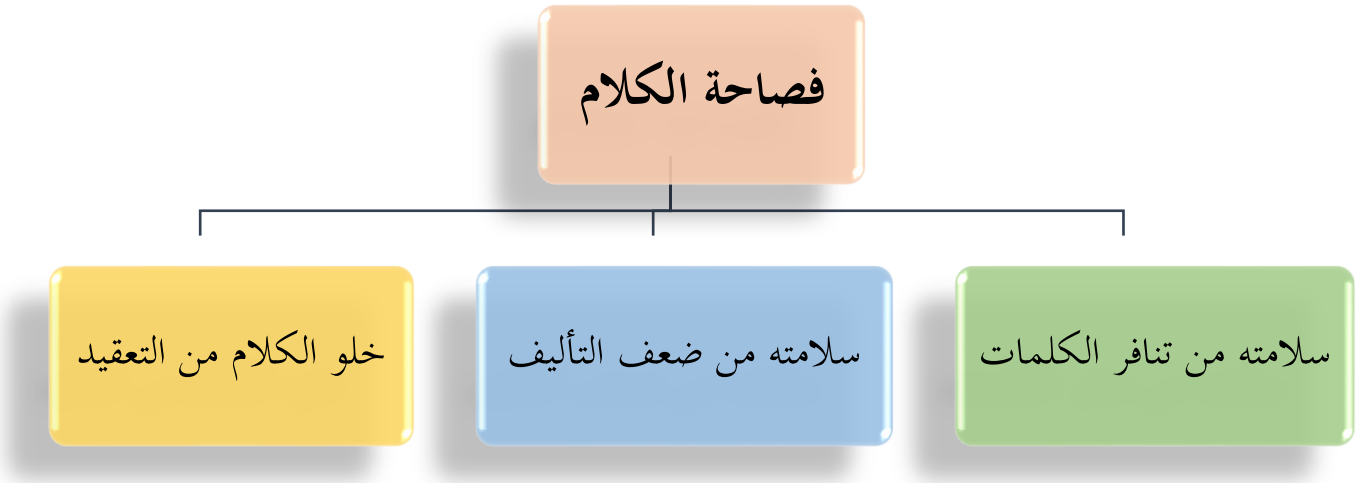

أولا: سلامة الكلام من تنافر الكلمات: والمراد من التنافر اجتماع كلمات يعسر ويصعب النطق بها؛ وإن كانت كل كلمة بمفردها فصيحة.

والتنافر في الكلمات نوعان:

- تنافر شديد: كقول أبي الطيب المتنبي في قصيدة يمدح فيها سيف الدولة الحمداني:

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ احملْ علِّ سلِّ أعِدْ ******زدْ هِشَّ بِشَّ تفضّلْ أَدْنِ سَرِّ صِلِ

فكل كلمة بمفردها فصيحة، ولكن حصل الثقل بسبب اجتماع هذه الأفعال دون حرف عطف بينها.

- تنافر خفيف: كقول أحدهم:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ فقرٍ ***** وليس قربَ قبرِ حربٍ قبرُ

وكقول أبي تمام حبيب بن أوس الطائي:

أألبس ثوب الهجر من لو هجوته ***** إذًا لهجاني عنه معروفُهُ عندي

كريم متى أمدحه أمدحه والورى ****** معي وإذا ما لمتُهُ لمتُهُ وحدي

وعلاج هذا العيب يكون **بتعلم علم الأدب**، وبالقراءة لكتب الأدب، وسماع كلام الأدباء والفصحاء.

ثانيا: سلامة الكلام من ضعف التأليف: أي: يكون تأليف الكلام مخالفا لعلم النحو، وأوجه الإعراب المشهورة، نحو قول الفرزدق:

بالباعثِ الوارثِ الأمواتِ قدْ ضَمِنَتْ ***** إياهم الأرضُ في دهرِ الدهاريرِ.

فهنا أتى بالضمير المنفصل مع إمكان مجيء المتصل، لضرورة الشعر، وهذا مخالف المشهور في علم النحو.

ومنه: قولك: ضرب غلامُه زيدًا، فهو خلاف المشهور في علم النحو؛ لأن لا يجوز عود الضمير على متأخر في اللفظ والرتبة.

وعلاج هذا العيب **بتعلم علم النحو**.

ثالثا: خلو الكلام من التعقيد: والتعقيد كون الكلام غير ظاهر الدلالة على المعنى المراد.

والتعقيد نوعان:

- التعقيد اللفظي: وهو التعقيد الراجع إلى اللفظ، نحو قول الفرزدق رحمه الله يمدح إبراهيم بن هشام ابن إسماعيل المخزومي، خال هشام بن عبد الملك بن مروان:

وما مثلُهُ في الناسِ إلا مملكًا ***** أبو أمِّهِ حيٌّ أبوهُ يقاربُه.

ترتيب البيت: ما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه.

أي: ما مثلُ إبراهيمَ بنِ هشامٍ في الناس إنسانٌ حيٌّ يقاربه في الفضل إلا مُمَلَّكا – الذي هو هشام بن عبد الملك – أبو أمه – أي: أبو أم هشام بن عبد الملك – أبوه – أي: أبو إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي.

وكقول القائل: ما قرأ إلا واحدا محمدٌ مع كتابا أخيه، وأصل ترتيب الكلام: ما قرأ محمدٌ مع أخيه إلا كتابا واحدًا.

وعلاج هذا العيب **بتعلم علم النحو**.

- التعقيد المعنوي: وهو التعقيد الراجع إلى المعنى، نحو قول القائل: فتح السلطان أبواب السجون.

فظاهر العبارة أن السلطان أخرج المساجين من السجن بإصدار عفو عام عنهم، ولكن هنا قصد أن السلطان نشر جنوده لملاحقة خصومه حتى يدخلهم السجن.

ومنه قول العباس بن الأحنف: سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا **** وتسكب عيناي الدموع لتجمدا.

وعلاج هذا العيب **بتعلم علم البيان**.

****

البلاغة

قال الناظم رحمه الله:

..... وَإِنْ يَكُنْ مُطَابِقاً لِلْحَالِ

فَهْوَ الْبَلِيغُ وَالَّذِي يُؤَلِّفُهْ .....

الشرح:

بعد أن انتهى المصنف رحمه الله من الكلام عن الفصاحة، بنوعيها، فصاحة المفرد والمتكلم، شرع في الكلام عن البلاغة، ثم ذكر النوع الثالث من الفصاحة وهي فصاحة المتكلم، وإن كان الأولى تقديمها قبل الشروع في البلاغة؛ لأن ذاك موضعها.

تعريف البلاغة:

لغة: بلغ الشيء إذا وصل إلى غايته ومنتهاه.

اصطلاحا: يختلف تعريف البلاغة، بحسب اختلاف موصوفها، فالذي يوصف بالبلاغة، الكلام، والمتكلم، فيقال: كلام بليغ، ومتكلم بليغ، ولا توصف الكلمة بالبلاغة، فلا يقال: كلمة بليغة، بل توصف بالفصاحة، فيقال: كلمة فصيحة.

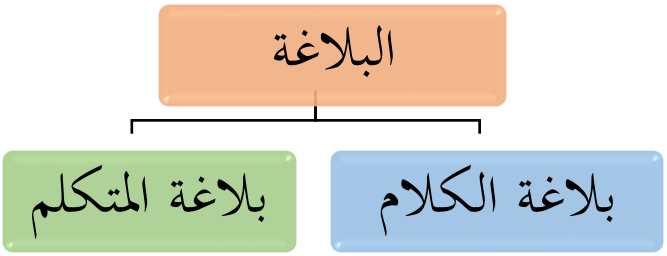

المسألة الثالثة: بلاغة الكلام:

قال الناظم رحمه الله:

..... وَإِنْ يَكُنْ مُطَابِقاً لِلْحَالِ

فَهْوَ الْبَلِيغُ ....

الشرح:

بلاغة الكلام: مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال.

نحو قولك لمن يشك في الرزق: إِنَّ الله هو الرزاق الكريم.

الحال	المقتضى	الكلام الفصيح	مطابقة الكلام لمقتضى الحال
الشك	تأكيد الكلام	إنَّ الله هو الرزاق	الشك يحتاج إلى تأكيد

ونحو قولك لمن ينكر البعث: إِنَّ الله لمحي الموتى.

الحال	المقتضى	الكلام الفصيح	مطابقة الكلام لمقتضى الحال
الإنكار	زيادة تأكيد الكلام	إن الله لمحي	الإنكار يحتاج إلى زيادة تأكيد

ونحو خطاب الله عز وجل لبني إسرائيل:

في سورة البقرة {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}

وفي سورة الجمعة {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}

ومن هنا نفهم أنه لا تعارض بين قوله تعالى {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} وبين قوله { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا}

المسألة الرابعة: بلاغة المتكلم:

قال الناظم رحمه الله:

..... وَالَّـذِي يُـؤَلِّـفُـهْ .....

بلاغة المتكلم: ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ.

وظاهر كلام المصنف رحمه الله، أنه بمجرد أن يتكلم بكلام بليغ، يقال عنه بليغ، والحال ليس كذلك، بل لا بد أن تكون عنده ملكة أو هيئة في النفس راسخة، يقدر من خلالها تأليف الكلام البليغ.

المسألة الخامسة: فصاحة المتكلم:

قال الناظم رحمه الله:

..... وَبِالْفَصِـيح مَنْ يُعَبِّرْ نَصِـفُـهْ

عرف المصنف فصاحة المتكلم: بأنه الذي يعبر عن مقصوده بلفظ فصيح.

وفي هذا التعريف نوع من القصور، فليس كل من يتكلم بكلام فصيح يكون فصيحا، بل فصاحة المتكلم: **ملكة يقتدر بها على التعبير عن مقصوده بلفظ فصيح**، وهذا أمر نسبي، فقد يكون المتكلم فصيحا في باب، غير فصيح في باب آخر.

المسألة السادسة: الصدق والكذب

قال الناظم رحمه الله:

وَالصِّـــــدْقُ أَنْ يُطَـابِقَ الْوَاقِعَ مَـا يَقُولُـهُ وَالْكَـذْبُ إِنْ ذَا يُعْـدَمَـا

الشرح:

بعد أن انتهى المصنف رحمه الله من الكلام عن الفصاحة والبلاغة، عقب بذكر مسألة العادة أنها تذكر عند الكلام على الإنشاء في علم المعاني، فهي في الحقيقة ليست من مقدمات علم البلاغة، فمن مسائل علم المعاني ما يسمى بالإنشاء، وهو ما لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، وعكسه الخبر وهو ما احتمل الصدق والكذب لذاته، فهنا يرد السؤال ما هو الصدق وما هو الكذب؟ فأجاب المصنف رحمه الله بذكر تعريف الصدق والكذب.

الصدق: هو مطابقة الكلام للواقع دون النظر لاعتقاد المتكلم.

الكذب: هو عدم مطابقة الكلام للواقع دون النظر لاعتقاد المتكلم.

- اعتقد أن الكوفة في العراق، وقال: الكوفة في العراق، فهذا صدق؛ لأنه طابق الواقع.
- اعتقد أن الكوفة في الحجاز، وقال: الكوفة في العراق، فهذا صدق؛ لأنه طابق الواقع، وإن كان مخالفا لاعتقاده.
- اعتقد أن الكوفة في العراق، وقال: الكوفة في الحجاز، فهذا كذب؛ لأنه خالف الواقع، وإن كان موافقا لاعتقاده.
- اعتقد أن الكوفة في الحجاز، وقال: الكوفة في الحجاز، فهذا كذب؛ لأنه خالف الواقع.

من هنا نفهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن كذبا عليَّ ليس ككذب على أحد، من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" خ.م.

فالنبي صلى الله عليه وسلم قسم الكذب باعتبار الإثم إلى قسمين:

- كذب فيه الإثم: مخالفة الواقع، مع التعمد.

- كذب لا إثم فيه: مخالفة الواقع دون التعمد، ومنه أن رجلاً من بني كنانة يدعى المخدجي سمع رجلاً بالشام يكنى أبا محمد يقول: إن الوتر واجب، فقال المخدجي: فرحت إلى عبادة بن الصامت فاعترضت له وهو رائح إلى المسجد فأخبرته بالذي قال أبو محمد، فقال عبادة: **كذب** أبو محمد! سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "خمس صلوات كتبهن الله عز وجل على العباد فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة"

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم